اي ان هذا الرجل الذي نشأ صاماً اجرته ستون غرشاً في الاسبوع تمكن باجتهاده ومواظبته من استنباط وسائل جديدة في التصوير الشمسي فجمع ثروة وافرة انفق منها الى بداءة سنتنا هذه فيما يسره ويفيد ابناء وطنه اكثر من ٣٨ مليون ريال (او نحو ثمانية ملايين من الجنيهات)

هذا رجل من الرجال العصاميين العظام الذي جمعوا الثروة فيما يفيد الناس ثم انفقوها فيما يفيد الناس وبهم ارتقت الولايات المتحدة الاميركية وسبقت ممالك الارض

محمد علي الكبير والخلافة

سأتناول اليوم نقطة سياسية في تاريخ محمد علي جديرة بالبحث والايضاح في هذه الأيام التي كثر فيها الكلام بشأن الخلافة . ولا اريد التعرض في مقالي لموضوع الخلافة نفسه. انما جل رغبتي اصلاح خطإ منتشر في شأن نيات محمد علي نحو مركز الخلافة العثمانية فاقول :

اتخذ سلاطين بني عثمان لقب الخلافة في القرن السادس عشر بعد فتوحهم اكثرية العالم الاسلامي على ذلك بسبب ما احرزه الاتراك من الانتصارات الباهرة في ميادين القتال شرقاً وغرباً وما فتحوه من الاقاليم الغنية الواسعة بما في ذلك الاراضي المقدسة وما احيوه من روح اسلامية حربية كانت قد ضعفت منذ انتهاء الحروب الصليبية . ولكن ما جاء النصف الأخير من القرن الثامن عشر حتى بدأت الدولة تتدهور لاضطراب داخليتها من جهة ولظهور جارات لها طامعات في ملكها من جهة اخرى . فما لبثت الدولة الحربية ان انهزمت في ميادين القتال امام اعدائها فضعف نفوذها الأدبي ولم تقوَ على كبح جماح الثائرين من رعاياها . وما جاء عام ١٨٣٢ حتى فقدت معظم بلاد البلقان وكريد والجزائر ومصر وسوريا وبلاد العرب . فلا غرابة اذن لمن يحفظ التاريخ في سجلات سنة ١٨٣٣ مشروعات غريبة تنبئ بقرب زوال الخلافة العثمانية وانتقال امرها الى يد من هو اقوى سلطاناً واشد بطشاً — وهو محمد علي

والحقيقة انهُ لو اراد محمد علي قلبَ حكومة الخلافة اذ ذاك لما تعذر عليه ذلك . ألم يكن لهُ من سعة السلطان والقوة ما يرشحه لمنصب الخلافة فضلاً عن

مواهبه ومحبة الشعب له؟ ألم يكن هو الذي خلّص المدن المقدسة من ايدي الوهابيين وفتح طريق الحج الى بيت الله حتى لهجت بذكره السنة المؤمنين في انحاء العالم الاسلامي؟ أو لم يكن هو الحاكم المتصرف في دولة عربية واسعة النطاق تمتد من كريد الى الخليج الفارسي ومن جبال الطوروس الى اعالي النيل الابيض؟ ألم يكن صاحب الجيوش والاساطيل المنظمة الظافرة؟ أولم تقمع جيوشه ثورة الاغريق ثم استولت على سوريا وهزمت جيوش السلطان في اكثر من موقعة؟ زحفت كتائبه داخل الاناضول حتى وقفت عند «كوتاهية» ومنها هددت القسطنطينية مقر الخلافة نفسها

ولكننا على الرغم من كل هذا نخطىء كثيراً ونركب متن الشطط في تصوير سياسة محمد علي اذا عزونا اليه ارادة انتزاع الخلافة من العثمانيين. فمثل هذا الامل لم يدخل في حدود منهجه السياسي العملي. لقد كان لمحمد علي من النظر السياسي الصائب ما جعله يحافظ على علاقاته الرسمية بالدولة العثمانية ضماناً لصيانة املاكه الواسعة التي فتحها والتي لم تكن في الحقيقة الا جزءا من الدولة العثمانية التي ما فتئت الدول تعلن لزوم حفظ كيانها واستقلالها. لقد انتفع محمد علي ايما انتفاع من مركزه داخل الدولة اذ اخذ يواصل سياسة الفتح والاستعمار لمصلحته الخاصة تحت ستار من الاخلاص والولاء للسلطان

ان محمد علي لم ينسَ قط منشأه وما هو مدين به للسلطان الذي منه استمد حقوقه وقوته. ولم يجهل قط مبلغ تمسك الاتراك باسرة آل عثمان على عرش الخلافة اذ مهما يكن من شأن الاتراك في منازعاتهم وخلع سلاطينهم وتنصيبهم فمن المحقق انهم لم يحاولوا يوماً تغيير الاسرة الحاكمة

كل هذه الاعتبارات جعلت محمد علي يضع حداً لمقاصده وتصميماته فلم يقذف بنفسه في مشروع عالمي كالخلافة تحكمه التقاليد التاريخية قبل كل شيء. ولم يكن نصيبه من الارث التاريخي حينذاك شيئاً مذكوراً. واننا اذا تتبعنا خطواته واسترشدنا بخطته التي سار على منهاجها تبين لنا ان الغرض الذي كان يعمل له هو تثبيت اقدامه واسرته من بعده في حكم مصر وما يتبعها من الاراضي على اساس معاهدة دولية صريحة. وانه كان كبير الأمل متى بلغ هذه الامنية ان تجد الدولة

العثمانية من قوته ونفوذه واستدارته خير نصير لها وللأمم الشرقية الاسلامية بصفة عامة

ان البحث الدقيق فيما كتب عن محمد علي من مصادر اصلية لم يدلنا على انهُ طمح يوماً الى انشاء خلافة جديدة . ولقد ارادت الحكومة الانجليزية أن تستوثق من نياته نحو الخلافة فطلبت الى معتمدها في مصر الكولونيل كامبل (١٨٢٣ — ١٨٣٩) ان ينقب في سجلات القنصلية رجاء العثور على ما يثبت ادانة محمد علي فبحث ولكن على غير جدوى وكتب ينفي الخبر نفياً باتاً (سجلات وزارة الخارجية الانجليزية من كامبل الى پامرستون اكتوبر سنة ١٨٣٨ « سرّي »)

وكل ما في الأمر انهُ في اثناء ازمة ١٨٣٢ — ١٨٣٣ اذ نشبت الحرب الشامية الأولى بين محمد علي والسلطان محمود الثاني تبادل الطرفان قرارات تدل على شدة التحامل والتسرع ولا يمكن ان يؤبه لها لانها صدرت في احوال استثنائية موقتة . من ذلك ان السلطان اصدر قراراً بعزل محمد علي وابنهِ ابراهيم وطردهما خارج القانون فجاب محمد علي على ذلك بان امرَ شريف مكة باصدار فتوى دينية ضد الخليفة الاعظم على نسق ما كان يجري في اوربا في العصور الوسطى بين الملوك والبابوات . ولقد بدا لمحمد علي حينذاك ان يظهر في مصر بمظهر المستقل وبلغ به السخط على الباب العالي ان صرح لبعض ممثلي الدول انهُ يودّ خلع السلطان واجلاس ابنهِ الصغير (ابن السلطان) على عرش الخلافة فيكون هو صاحب الوصاية والقوة المحركة للخليفة القاصر . وهذا منتهى ما وصل اليهِ تطرف محمد علي الفكري اثناء الازمة العصيبة التي هزت عرش الخلافة هزّا

ولو كان محمد علي يطمح حقًّا في الخلافة لانتهز فرصة انتصاراتهِ الحاسمة ولامر جيوشهُ بالزحف على القسطنطينية من غير تردد وما كان اصلحها فرصة لهُ فان انجلترا وفرنسا كانتا تساعدانهِ بلا شك ضد اية حركة عدائية من جانب الروسيا أو النمسا او هما معاً

ولكن محمد علي لم يتحرك ضد القسطنطينية بل ارسل اوامرهُ الى ابنهِ ابرهيم بالوقوف عند « كوتاهية » حتى تجاب مطالبهُ التي قصرها على حكم سوريا واطنه عدا الاقاليم التي كانت في يده قبل الحرب . وان كل ما بدا من محمد علي اثناء هذه

الازمة من الحذر وضبط النفس والاعتدال لبرهاناً قوياً على سلامة نياته نحو الخلافة العثمانية

***

وهناك عامل آخر لا بدَّ من حسبانه عند البحث في هذا الموضوع وهو رأي دول اوربا فيما لو تمكن محمد علي من انتزاع الخلافة من يد العثمانيين . وليس هذا من الفروض التاريخية التي لا يجوز البحث فيها فليس ثمة شك ان هذه المسألة طرحت فعلاً على بساط البحث والمناقشة بين الدول عقب ازمة ١٨٣٣ . وكان الرأي الذي اتفقت عليه الدول اذ ذاك انهُ يجب المحافظة على كيان الدولة العثمانية وخاصة في اوربا ضماناً للسلام والصفاء بين الدول

غير انهُ كان لكل دولة تبع هواها وغرامها تفسير خاص لهذا المبدأ . فالروسيا مثلاً كانت تريد ان تبقى الدولة كما كانت ضعيفة تحت رحمة القيصر ورهن ارادته . وما كانت الروسيا لتعضد عنصراً ناهضاً كمحمد علي الاَّ اذا كانت تجهوداتهُ مسلطة ضد الدولة خارج بحر مرمره . فقد كتب الكونت « نسلرود » رئيس حكومة روسيا في ذلك الوقت الى المندوب الروسي في القسطنطينية يقول « يجب ان لا يصل محمد علي الى القسطنطينية ويقلب نظام الحكم فيها . فمثل هذا العمل لا يتفق مع مصالح حكومة القيصر واغراضها . فان محمد علي اذا وطد ملكهُ في الاستانة كان منهُ حصن منيع وقوة لا يستهان بها امام روسيا بدلاً من جار ضعيف مهزوم » (البسفور والدردنيل : لفريانو ص ٢٩)

اما فرنسا فكانت سياستها ذات وجهين فبينما نراها منجذبة نحو محمد علي عاملة على رفع شأنهِ اذهي من جهة اخرى تؤكد للباب العالي صدق ولائها القديم وتصميمها على الوقوف في وجه الروسيا ومنعها من تنفيذ اغراضها في الدولة

اما انجلترا فانها لم تكن تود ان ترى محمد علي عقبة في طريقها الى الهند اعني طريق السويس وطريق الفرات . ولكنها اذا خيرت بينهُ وبين الروسيا فضلت محمد علي فبعض الشراهون من بعض . ولهذا السبب تضامنت مع فرنسا في حمل السلطان على اجابة مطالب محمد علي سنة ١٨٣٣ . ولهذا السبب ايضاً ادلى بامرستون وزير خارجية انجلترا لسفيره في القسطنطينية بتصريحهم قال فيهِ « اذا اضطررنا

يوماً ان تختار احد امرين اما استيلاء محمد علي على القسطنطينية او جعلها تحت نفوذ روسيا فلا يكون في وسعنا الا ان نختار الامر الاول (سجلات وزارة الخارجية من پامرستون الى بتسني ٦ دسمبر سنة ١٨٣٣) هذا تصريح نزل نزول الصاعقة على الروسيا والنمسا — تصريح لم يفه الوزير الانجليزي بتلطف في جانب محمد علي . وبلغ من خوف مترنخ الوزير النمسوي انهُ كتب على اثر ذلك يرجو پامرستون ان يحفظ تصريحه طيّ الكتمان مخافة ان يصل الى علم الباشا فيشجعهُ على تجديد العداء للسلطان . واراد الوزير الانجليزي ان يوضح الامر جليًّا للروسيا فكتب الى سفيره ببطرسبورج يقول « ولو انهُ لا يوافق الحكومة الروسية ان ترى محمد علي على رأس الدولة العلية لانها تخشى همتهُ ونشاطهُ فان انجلترا ترى انهُ خير لاوربا ومصالحها ان يحكم الدولة حاكم قوي مستقل من ان يكون السلطان آلة في يد الروسيا تحركها كيف شاءت » (من پامرستون ٢٨ فبراير سنة ١٨٣٤)

ولما نشبت الحرب الشامية الثانية بين محمد علي والسلطان سنة ١٨٣٩ صرح پامرستون لسفير فرنسا في انجلترا « بانهُ كان يود من صميم فؤاده ان يرى محمد علي حتى في منصب الخلافة لو ان لهُ من الخصال وحولهُ من التقاليد ما يضمن بقاء الدولة وتماسكها في المستقبل » (مذكرات جيزو الجزء الرابع)

اما النمسا فانها ارتبطت في سياستها مع الروسيا واتفقتا على العمل معاً ضد امتداد نفوذ محمد علي في اوربا

هذه خلاصة آراء الدولة العظمى بشأن محمد علي والخلافة — وكلها تؤيد ما ذهبنا اليهِ وهو في حين انهُ كان من المستطاع ان يقلب محمد علي حكومة الخلافة العثمانية ويلقى في سبيل ذلك تعضيد بعض الدول فانهُ كامير مسلم عثماني صميم طالما رأسهُ امام سرير الخلافة العظمى فلم يمسسها بسوء وظل الى النهاية يقدس مقام الخلافة ويعمل فقط على تثبيت حكمهِ واسرتهِ في مصر وما يتبعها من الاقاليم حتى تحقق جلُّ امانيهِ بمعاهدة لندره سنة ١٨٤٠ وهي اساس استقلالنا اليوم امام الدول

محمد رفعت

مدرس التاريخ بمدرسة المعلمين العليا